

الحجاج الباتوسي في رواية "أم سعد" لغسان كنفاني

Patos' arguments in the novel "Umm Saad" by Ghassan Kanafani

أ.د. بوخشة خديجة¹

مختبر اللغة والتواصل

جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

khedidja.boukhecha@univ-tlemcen.dz

تاريخ الوصول 2023/12/18 القبول 2024/02/10 النشر على الخط 2024/06/01

Received 18/12/2023 Accepted 10/02/2024 Published online 01/06/2024

ملخص:

تعتمد حجج الباتوس على عواطف السامعين وانفعالاتهم ومشاعرهم، ويتميز هذا النوع من الحجج بأنه حجاج تكون فيه الانفعالات هي الغاية، وتكون القوة الحجاجية المضمنة فيه للتعبير عن عاطفة معينة، فيجعل المتلقي يدخل في حالة شعورية معينة.

فكيف تشتغل حجج الباتوس في الخطاب الروائي؟

اخترنا رواية أم سعد للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني لدراسة الحجج الباتوسية التي وظفها الكاتب لإقناع قارئه بمشروعية القضية الفلسطينية، ولحاولة الكشف عن الآليات الحجاجية التي يعتمد عليها حجاج الباتوس في الخطاب الروائي.

الكلمات المفتاحية: حجاج، باتوس، رواية، غسان، كنفاني.

Abstract:

Patos' arguments depend on the emotions, , and feelings of the listeners. This type of argument is characterized by being arguments in which emotions are the goal. The argumentative power embedded in it is to express a specific emotion, making the recipient enter a specific emotional state. How do emotions function argumentatively in novelistic discourse?

We chose the novel Umm Saad by the Palestinian writer Ghassan Kanafani to study the Patosian arguments that the writer employed to convince his reader of the legitimacy of the Palestinian cause. And to try to reveal the argumentative mechanisms adopted by the pilgrims of Batos in narrative discourse.

Keywords: arguments, Patos, novel, Ghassan, Kanafani.

1. مقدمة:

يرى أرسطو أنّ ملكة الكلام هي الفضيلة الإنسانية والخاصة المميزة للإنسان يقول: "إذا كان من المخجل ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالقوة العضلية فإنه من العبث ألا يتمكن من الدفاع عن نفسه بالكلمة؛ إذ بها لا بالقوة العضلية يتميز الإنسان".²

الباتوس هو الحجج الانفعالية التأثيرية بغرض استمالة الجمهور وعواطفهم، وما نلاحظه في البلاغة الجديدة لبرلمان أننا نجد اهتماما ملحوظا بحجج الإيتوس خاصة في تقنيات الحجاج: حجة الشخص وأعماله وحجة القدوة، وفي مقابل ذلك نجد إهمالا لحجج الباتوس.

إنّ إعادة الاعتبار للحجج الباتوسية الانفعالية يفتح المجال على إمكانيات جديدة تؤدي إلى إثارة قضايا عصرنا، وتساعد الباحث بما توفره من أدوات للكشف عن آليات إنتاج المعنى واشتغاله في الخطاب، لذلك ينبغي على الخطيب معرفة طريقة تحريك الانفعالات وتحفيز المشاعر وتأجيج العواطف، واستغلالها لتحقيق الإقناع، وإبعاد الشك عن النفوس المخاطبة، والإعداد النفسي من أجل توجيه رد فعل المتلقين الوجهة التي يأملها المتكلم، حيث يختار المتكلم النمط المناسب، نجده يعزف على الوتر الحساس للمتلقى لتهتز نفسه، فيأخذ المتكلم بيده ليكتشف الحقيقة.

اخترنا رواية أم سعد للكاتب الفلسطيني غسان كنفاني لدراسة الحجج الباتوسية التي وظفها الكاتب لإقناع قارئه بمشروعية القضية الفلسطينية، ولحاولة الكشف عن الآليات الحجاجية التي يعتمد عليها حجاج الباتوس في الخطاب السرد.

2. مفهوم الباتوس:

تعدّ جهود أرسطو في ميدان الحجاج تحولا كبيرا في تطور مشروع سقراط وأفلاطون، فأرسطو أخرج الحجاج من دائرة السفسطة والمغالطة من جهة وأبعده من مجال اليقين من جهة أخرى، فالبلاغة عند أرسطو: "قوة تتكلف الإقناع الممكن".³ يرى أرسطو أن عامة الناس يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم، فهم بحاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة.⁴

ومقومات الحجاج عند أرسطو هي: الباتوس - والإيتوس - واللوغوس؛ حيث قسم أرسطو الحجج إلى نوعين "حجج غير الصناعية وهي الحجج الجاهزة والتي لا يكون للخطيب دخل فيها، والحجج الصناعية وهي الحجج غير الجاهزة وقسمها إلى ثلاثة أقسام؛ حيث يقول: "فأما التصديقات التي نختار لها بالكلام فإنها أنواع فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون بتهيئة السامع واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون بالكلام نفسه"⁵ فالحجاج عند أرسطو يقوم على ثلاثة مقومات: حجة الإيتوس: وهي الحجج التي تعتمد على شخصية الخطيب؛ وهو ما يتصل بأخلاق المتكلم.

² Aristot : rhétorique ed livre de poche 1991 p80 نقلا عن محمد الولي : السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية ضمن كتاب

الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية الجزء 2 حافظ اسماعيلي علوي، ص68

³ أرسطو: الخطابة (الترجمة العربية القديمة) ص19.

⁴ محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً، إفريقيا الشرق.

⁵ أرسطو: الخطابة (الترجمة العربية القديمة) تحقيق عبد الحمن بدوي، دار القلم بيروت 1979 ، ص10

حجة اللوغوس: وتعتمد على محتوى الخطاب؛ وما يضئّه من حجج منطقية.

حجة الباتوس: وتعتمد على مشاعر المتلقي؛ وأحواله وعواطفه.

تعتمد حجة الباتوس على عواطف السامعين وانفعالاتهم حيث ينبغي مراعاة أحوالهم النفسية من إثارة للغضب والعداوة والحب والكراهية والتخوؤ والثقة والخجل والإحسان والشفقة والسخط والحسد والمنافسة ... ففي الخطابة القضائية مثلاً يكون المطلوب إثارة الغضب على الجاني والشفقة على الضحية، وفي الخطابة الاستشارية نجد مشاعر التخوف والثقة ... حيث يتم التأثير فيهم واستمالتهم للخطاب وإقناعهم بالحجج الواردة.

فالباتوس هو: "مجموعة انفعالات يرغب الخطيب في إثارتها لدى مستمعيه (رحمة، كراهية، غضب، خوف)"⁶ وفي شرحه للحجج الباتوسية يقول أرسطو: "كل ما يجعلنا نتغير فتتغير أحكامنا وتكون متبوعة بالألم واللذة مثل الغضب والشفقة والخوف، وجميع الانفعالات الأخرى والمشاهدة وأضدادها"⁷ فيحصل الإقناع حين يتمكن المتكلم من جعل مخاطبه يشعر بانفعال معين ومن المشاعر والعواطف التي ذكرها أرسطو في كتاب الخطابة: الغضب والسكون، الصداقة والكراهية، والخوف والأمن، الحزي والوقاحة، الشفقة والنقمة والحسد والهم والغبطة محاولاً شرح كل إحساس ومعرفة أسبابه وطرق تجنبه.

يقول محمد الولي أنّ الباتوس هو: "التوجه مباشرة لمخاطبة القلب مستودع العواطف لا العقل"⁸ حيث يستند الحجاج الباتوسي على الملامح النفسية للمتلقي، إننا نستطيع أن نقنعه إذا كنا على علم بعواطفه ونوازه وميوله واختياراته⁹ إنه "الانفعالات والإحساسات المصحوبة بألم أو لذة، إنها لوحة المفاتيح التي ينقر عليها الخطيب لأجل كسب الاستمالة"¹⁰.

والقدرة على تحريك الانفعالات للقضية المدافع عنها وإقناع الجمهور بها يقول ماير: "إن القدرة على الحجاج الجيد؛ أي القدرة على الإقناع تقتضي المعرفة بما يمكن أن يحرك الذات التي نتوجه إليها بالخطاب"¹¹ فغاية الحجاج هي التأثير في الإدراك من ناحية والتأثير في الإرادة (أي الأهواء والعواطف) من ناحية أخرى فغايتته: "دغدغة العواطف وإحداث التأثير في السامعين لبلوغ درجة من الإذعان عالية"¹² ويسعى: "إلى إحداث الإجماع حول بعض القيم التي يقول بها الجمهور وهو يستعين بمجمل الوسائل التي يتيحها له فن الخطابة لكي يضخم تلك القيم ويعظمها ... ويكون استخدام كل طرائق الأدب جائزاً، فالمهم هو التوسل بكل ما من شأنه أن يساعد على جعل الجمهور يقاسم آراءه ومشاعره"¹³ وهذا النوع من الحجاج أقرب إلى الأدب لاعتماده الوسائل الأدبية ويكون

⁶ محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء ط1، 1426هـ 2005م ص15

⁷ أرسطو الخطابة ، ص95

⁸ محمد الولي السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج مدارس وأعلام ،

ج2 عالم الكتب الحديث إريد الأردن 2020 ص61

⁹ ينظر نفسه والصفحة نفسها

¹⁰ ينظر نفسه ص76.

¹¹ ينظر نفسه ص77

¹² عبد الله صولة : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات دار مسكيلاني ط1 ، 2011 ص17

¹³ عبد الله صولة : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات ص20

موضوعه مما يقرّ به الجمهور ويعتقده ويؤمن به والغاية منه هو الاستعداد للعمل، وزيادة في درجة الاقناع بقيم معينة وفي حصول الإجماع عليها.

وتكون الملفوظات في البناء الحجاجي للانفعالات بمثابة الحجج التي يؤتى بها ويعول عليها لتبرير انفعال بعينه.¹⁴

3. شروط الحجج الباتوسية:

الانفعالات ليست ضرباً من الاضطرابات والخذع التي تجعل المتلقي مندفعاً، كما أن الانفعالات لا توظف بالمغالطة والتلاعب بمشاعر الجمهور، بل إنها تستند إلى النظام القيمي والمعتقدات الرائجة في المجتمع، كما يمكن إخضاع الانفعالات والعواطف للملاحظة والدراسة، فمدار الحجاج الباتوسي على توجيه انفعال معين، ومراقبة الانفعالات وتطويرها وتوجيهها الوجهة التي تخدم مقاصد المتكلم ليجعل منها أداة تأثيرية وإقناعية بالغة الأهمية؛ فحين يقول قائل: (تم قتل مجموعة إرهابية متطرفة) تأثيره مخالف تماماً لقول آخر (تم قتل مجموعة من الأبرياء الفلسطينيين) فهذا يولد شعوراً بواجب القيام بالفعل.

إنّ المطلع على الخطاب الروائي الفلسطيني في عموميه يجده متأسساً على نظام من العواطف، ويتفرّد غسان كنفاني في روايته أم سعد في الكشف عن حالات عاطفية متنوعة معانقا هموم القضية الفلسطينية محاولاً تطهير نفس المتلقي وتحقيق التوازن داخل نفسه حين يؤثر عليه عاطفياً فيجعله ينفر من المحتل الغاشم ويدعو إلى الخير والحرية فينمي عاطفة الرحمة لديه.

4. آليات الحجاج الباتوسي في رواية أم سعد

ولرصد الأبعاد الحجاجية للعواطف وكيفية اشتغالها في الرواية؛ نستند إلى النموذج الذي قدّمه كريستيان بلانتان لتحليل الباتوس فينبغي عرض أسئلة لمعرفة موضع العاطفة: "ماذا؟ تحديد طبيعة الحدث.

من؟ طبيعة المعنى بالحدث بحيث تتفاوت تبعاً لهوية ذلك الشخص موضوع العاطفة.

مثل ماذا؟ المماثلة وسيلة مهمة لبناء العواطف.

متى؟ أين؟ تؤثر ظروف الزمان والمكان في العاطفة.

كم؟ يؤدي مبدأ الكم والكثافة دوراً مهماً في مضاعفة وقع العاطفة.

لماذا؟ ماهو سبب الحادث؟ هل هناك عامل مسؤول؟¹⁵

وللكشف عن الآليات الحجاجية التي يعتمد عليها الحجاج الباتوسي في رواية أم سعد سنبدأ بتحديد ألفاظ الانفعالات وموضع العاطفة فيما يلي:

تعيين الألفاظ التي تكون حقل الانفعالات التي تجمع العواطف مثل (بكاء، شدة حزن) والأحاسيس (الكآبة) والحالات (مثل الضياع) فإن طرحنا هذه الأسئلة لمعرفة كيف تتموضع الانفعالات في الرواية نجد الأجوبة الآتية :

¹⁴ ينظر حاتم عبيد: الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ج4 الحجاج والمراس، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1 2010، ص97.

¹⁵ Christian plantin : l'argumentation dans lemotion IN : pratique : l'linguistique, littérature, didactique 1996-1997, p82-89 نقلاً عن الحسن بواجلاين : نظام الحجاج بالعواطف في قصيدة البكاء للشاعر محمود درويش مجلة مقامات المجلد 4 ع2 (2020) ص34-35

عمن يتحدث الكاتب؟ عن الشعب الفلسطيني اللاجئ المطرود من أراضيهِ
 ما هو الحدث؟ الفقر المدقع والبؤس والشقاء ... وما يقابله من صمود وتحذ وفخر وأمل.
 متى تمّ الحدث؟ بعد وقوع الهزيمة فهذه الرواية تعدّ تحليلاً لانطلاقة الثورة المسلحة بنفس ملحمي غايته التأكيد على حمل السلاح
 لاسترداد الوطن المغتصب، فبداية الرواية كانت تتحدث عن الهزيمة وما يصاحبها من مشاعر الحزن والعذاب والهم ... وفي نهاية
 الرواية نجد الحياة والثورة وما يشاكلها من أحاسيس السعادة والفخر والاعتزاز.
 أين تمّ الحدث؟ في الملاجئ (المخيم، الاغتراب، المنفى)
 وما سبب معاناتهم؟ التهجير
 وما سبب الحدث؟ لأن إسرائيل تريد أن تستوطن أرض فلسطين.
 رسم غسان كنفاني شخصيات روايته أم سعد بعناية فائقة بمظهرها الخارجي والداخلي. فجسد حالات عاطفية ليعانق هموم القضية
 الفلسطينية وليكشف عن الذات المضطهدة وعواطفها.
 تحدث الكاتب عن عاطفتين ممتزجتين عاطفة الفخر وعاطفة الشفقة حيث تتجسد عاطفة الفخر حين يفخر بأم سعد المكافحة
 المناضلة وبأنها مدرسة يتعلم منها، وتتجلى عاطفة الشفقة حين يصور عن آلامها ومعاناتها واضطهادها....
 وحين يستحضر حياة الفلسطينيين في الملاجئ المنفيين عن أراضيهم نجد عواطف الألم، الجوع التعب... الغربة... انتقى الكاتب
 ألفاظاً لغوية معينة ترسم أبعاد الخطاب وأساليب بناء وتراكيب معبرة عن الحدث فهو يعبر عن شخصية واقعية فأما سعد "حكاية
 امرأة فلسطينية مقاومة امرأة حقيقية أعرفها جيداً وما زلت أراها دائماً وأحدثها وأتعلّم منها"¹⁶ فقد حدّد الكاتب علاقة القرابة بينه
 وبين البطلة وجعلها مدرسة يتعلّم منها وفي تسجيله لوقائع وأحداث وشخصيات عاصرها ليعبر عن الواقع الفلسطيني برمته، ومما
 جعلها أكثر واقعية زيارة البطلة للكاتب في بيته ومناداتها له "بابن عمي".

1.4. ألفاظ الفقر المدقع والبؤس الواطئ والعمل الكادح:

رواية أم سعد هي رواية المرأة الكادحة في مخيم اللاجئين وأم سعد هي رمز شامل لطبقة المخيم في المنفى وكل أم فلسطينية
 رفضت أسمال البؤس واختارت طريق المقاومة، فالكاتب حاول أن يجعل المتلقي يحس ببؤس وفقر هذه الطبقة يقول الكاتب متحدّثاً
 عن أم سعد: "... تربطها بتلك الطبقة الباسلة المسحوقة والفقيرة والمهمية في مخيمات البؤس ... إننا نتعلم من الجماهير
 ونعلمها... المعلم الحقيقي الدائم هو الذي في صفاء رؤياه تكون الثورة جزءاً لا ينفصم عن الخبز والماء وأكف الكدح ونبض
 القلب... ومن كفيها الصلبيتين اللتين ظلّتا رغم كل شيء تنتظران السلاح عشرين سنة ... ليست امرأة واحدة ولولا أنها ظلّت
 جسداً وعقلاً وكدحاً في قلب الجماهير وفي محور همومها وجزءاً لا ينسلخ عن يومياتها... كان صوتها دائماً هو صوت تلك الطبقة
 الفلسطينية التي دفعت غالباً ثمن الهزيمة... والتي تقف تحت سقف البؤس الواطئ في الصف العالي من المعركة وتدفع وتظل تدفع
 أكثر من الجميع"¹⁷ فهي تمثل الإنسان الفلسطيني ومعاناته في الملاجئ، فهي ضحية دفعت ثمن الهزيمة وما زالت تدفع أكثر وهذا

¹⁶ غسان كنفاني أم سعد منشورات غسان كنفاني الثقافية ط1 - 1969 ، ط2013 ص8

¹⁷ نفسه ص7-8

تركيز على شدة البؤس والفقر، كما يشرح شدة التعب والكدح الشقي والعمل المرهق: "إنها سيدة في الأربعين... قوية كما لا يستطيع الصخر، صبورة كما لا يطيق الصبر تقطع أيام الأسبوع جيئة وذهابا تعيش عمرها عشر مرات في التعب، والعمل كي تنتزع لقمته النظيفة ولقم أولادها... تضع أشياءها الفقيرة في المدخل تفوح في رأسي رائحة المخيمات بتعاستها وصمودها العريق وببؤسها وآمالها وترتد إلى لساني غصة المرارة التي علكتها حتى الدوار سنة وراء سنة¹⁸" فالكاتب يفصل الحديث عن مدى فقرها ومعاناتها وما تثيره في نفسه من ألم وحزن وشفقة. وقال كذلك أنها كانت "عجوزا قوية اهترأ عمرها في الكدح الشقي كانت كفاها مطويتين على حضنها، ورأيتهما جافتين كقطعتي حطب مشقتين كجذع هرم، وعبر الأخاديد التي حفرتها سنون لا تحصى من العمل الصعب رأيت رحلتها الشقية مع سعد¹⁹ ركز الكاتب على تيمات عاطفية ضمن وحدات معجمية (البؤس، مخيمات البؤس، تحت سقف البؤس الواطئ، الفقر، أشياءها الفقيرة، المسحوقة، التعب، عشر مرات في التعب، العمل، الكدح الشقي، العمل الصعب، همومها التعاسة المرارة) حيث كثف الكاتب هذه العواطف وتداخلت فشكلت بذلك التيمة الطاغية على الرواية وأحداثها، ومزجها بعواطف الصمود والصبر والتجلد والقوة لتشكل الثقافة الوطنية المتأصلة في الصبر وتحمل مآسي الواقع والتفاؤل بالمستقبل وتعكس كل القيم الروحية والأخلاقية للشعب الفلسطيني، فرغم الفقر والهزيمة والضياع... بالمقابل قدرة على التماسك والكفاح بأسلوب إيجابي.

ولشدة تمسك أم سعد بالأرض وعلاقتها القوية بها وتشبثها بها ركز الكاتب على تيمة الأرض في وصف الصمود والصلابة والقوة: "إنها دوما مثل شيء ينبثق من رحم الأرض..." "تصعد من قلب الأرض وكأنها ترتقي سلما لا نهاية له"، يقول كذلك "كفين جافتين كقطعتي حطب مشقتين كجذع هرم" وفي موضع آخر يقول الكاتب "ورأيت في شقوقهما التي اهترأت مع التعب والعذاب آثارا حمراء لخيوط من الجروح لم تلتئم تماما... تشبهان جلد الأرض يعذبها العطش²⁰ فجروح كفيها بسبب التعب المضني ولأنها كانت تلم قطعا حادة من المعدن.

يقول كذلك "تنفجر دموعها مثلما تنفجر الأرض بالنبع للمنتظر منذ أول البدء" "ساعدها القوي يشبه لون الأرض" وتارة يشبهها بالريف فيقول: "رائحتها رائحة الريف الذي كمن فيه ابنها سعد المتربص بعدوه" وطورا يشبهها بالصحراء فيقول: "إنها صحراء قاحلة من التعب المضني²¹ فأم سعد رمز شامل للإنسان الفلسطيني الصامد المكابد المكافح في بحر المعاناة والصبر على مأساة المنفى والحاجة الملحة للعمل من أجل تحرير الأرض.

2.4. موضع العاطفة:

حاول الكاتب توجيه الخطاب نحو انفعال معين باختيار الموضوع وانتقاء الحدث، وحمل المتلقي على الشعور بالفخر والاعتزاز؛ فالكاتب يحتج لعواطفه ليحمل المخاطب على أن يدخل في حالة شعورية معينة فالأم تحزن لموت ابنها لكن هناك حالات يختلط

¹⁸ نفسه ص 21-22

¹⁹ نفسه ص 22

²⁰ الرواية ص 41

²¹ ينظر الرواية ص 42

فيها الحزن بالشعور بالافتخار مثلما تشعر الأم الفلسطينية التي ينفذ ابنها عملية استشهادية، فالشهيد بطل وهذا ما يفسر شعور الأم فتكون الهزة الانفعالية أشد والأثر النفسي أعمق.

تحدث الكاتب عن الشعب الفلسطيني اللاجئ المطرود من أراضيه ... محاولاً رسم شخصيات روايته أم سعد بعناية فائقة بمظهرها الخارجي والداخلي فجسد انفعالات متنوعة ليعانق هموم القضية الفلسطينية وليكشف عن الذات المضطهدة وعواطفها فنجد لدى الكاتب عاطفتين ممتزجتين (الفخر والشفقة)

عاطفة الفخر والاعتزاز حين يفخر الكاتب بأم سعد الصامدة المكافحة كونها تجمع بين مشاعر الأم الإنسانية ومشاعر الوطنية الصادقة، مناضلة متفائلة بالانتصار، فقد قدمت ابنها سعد للثورة آملة في العودة من خلاله إلى فلسطين، وتتمنى لو تخرج مع الثوار لتخدمهم، وتلم شظايا القنابل من شوارع المخيم وذات إثثار وتضحية كبيرين...

عاطفة الشفقة: يعطف الكاتب على أم سعد المرأة المعذبة المتعبة من الهزيمة والمنفى نظراً لما تعانيه من آلام واضطهاد وفقر وتعبد مضمن وغربة مستحضراً حياة الفلسطينيين في الملاجئ.

اهتم غسان بالإحساس الذي تثيره الكلمات في القارئ فكان يبحث عن الفردة في الشعور فلم يجعل عاطفة واحدة طاغية على الرواية، بل جعلها مكثفة ممتزجة عاطفة فريدة من نوعها لا أحد يستطيع تفسيرها لذلك نجد في الرواية تركيزاً على ثيمات عاطفية متنوعة يمكن إجمالها في حقلين دلاليين يشيران إلى التغير الإيجابي الحاصل في نهاية الرواية وهما:

3.4. حقل عاطفة (الحزن، الهم، الحيرة، الأسى، التعاسة):

قام الكاتب بمحاورة هذه العواطف وتفجيرها عن طريق تصوير البعد النفسي لمشاهد الهزيمة وما يعتورها من آلام تعتصر القلب اعتصاراً؛ يقول الكاتب: "كان ذلك الصباح تعيساً، وبدت الشمس المتوهجة وراء النافذة وكأنها مجرد قرص من النار يلتهب تحت قبة الفراغ المروع... بدت أمام تلك الخلفية من الفراغ والصمت والأسى مثل شيء ينبثق من رحم الأرض"²² فركز على جو التعاسة والأسى والخوف المروع بعد الهزيمة، ورغم ذلك ظهرت أم سعد كأمل يولد من جديد "تراكمت دروع الجنود المحطمة فوق الرمل المهجور... شقت طوابير النازحين مسافات جديدة، وكنت أسمع هدير الحرب من الراديو ومنه سمعت صمت المقاتلين وهو يتكئ على طاولة ورائي ينوح مثل أرملة وبطل يبعث بصوته المهزوم كل أشياء الغرفة بالتفاهة..."²³ فالراديو ينقل الأخبار الحزينة، وصورة الهزيمة المروعة التي أملت بالشعب الفلسطيني في نكسة 67 حين توسع الاحتلال فضمت إسرائيل الكثير من المنطق العربية. يذكر الكاتب أن الحرب بدأت بالراديو وانتهت به ملخصاً بذلك قصة الهزيمة التي دعمتها الحرب الإعلامية.

يقول غسان في موضع آخر: "اختفت أم سعد منذ تفجر القتال وها هي تعود وكأنما على إيقاع الهزيمة، لقد قاتلوا من أجلها وحين خسروا خسرت هي مرتين..." شبه الكاتب أم سعد هنا بفلسطين فثمة خسارتين في نكبة 48 ونكسة 67 ثم يصور الكاتب التمزق بعد النزوح الذي لا يحتمل فيقول: "أم سعد في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لأحدٍ بحملها على كتفيه"²⁴ ثم يقول "أنظر إلى كفيها منكفتين هناك كشيئين مصابين بالخبية، تصيحان من أعماقها، تطاردان المهاجر إلى الخطر والمجهول، لماذا يا إلهي

²² الرواية ص 9

²³ الرواية ص 10

²⁴ الرواية ص 21

يتعين على الأمهات أن يفقدن أبناءهن؟ لأول مرة أرى ذلك الشيء الذي يصدع القلب على مرمى كلمة واحدة منا، كأننا على مسرح إغريقي نعيش مشهداً من الحزن الذي لا يُداوى²⁵ حاول غسان تقريب الصورة إلى القارئ ذاكراً سبب الحزن الأسر الذي يحطّم القلب دون أمل في الشفاء منه وهو فقدان فلذة الكبد والخطر الذي يداهم المنفي وخوفه من المجهول، فارتبط الحزن بالخوف والألم والشعور بالخيبة، وشبه هذا المشهد بمسرح إغريقي فما قدّمه الإغريق من تمثيل تراجيدي في مسارحهم عايشه الفلسطينيون في واقعهم الحقيقي، صيحة من الأعماق، وحزنا يصدع القلب ولا يداوى.

يقول الكاتب: "وعميماً في عينيها رأيت شيئاً يشبه الخيبة، تلك اللحظة المروعة التي تشعر فيها أم ما أنّه صار بالوسع الاستغناء عنها، أنّها أطرحت في جهة ما كشيء استهلكه الاستعمال"²⁶. فقد أحس الكاتب بشعور يشبه الخيبة الذي يعتري أم سعد حينما شعرت بعدم أهميتها ونقل هذا الإحساس إلى القارئ. وكأن الكاتب ليس واثقاً فعلاً من شعور اليأس والخيبة فلا نجده يصفه مباشرة (أحسّت أم سعد بالخيبة) بل يحاول الاقترب من هذه العاطفة وكأنه غير متأكد منها: (كشيئين مصابين بالخيبة... شيئاً يشبه الخيبة)، ذلك لأنه شعور سيدحضه في نهاية الرواية.

وقد أبدع الكاتب في تصوير سينمائي يجعل أحداث العذاب والأسى والحزن ماثلة على مرأى العين: "وصل النشيج إلى حلقتها فاعترض الكلمة، فرشت راحتها أمامي وابتلعت الغصة التي كادت أسمع صوت سقوطها في صدرها المليء بحطام العذاب والأسى"²⁷. فكل جسمها كان ينفجر بكاءً لكن بصمودها ابتلعت الغصة في قلبها هذا المشهد مؤثر جداً، له طاقة تأثيرية فعالة في القارئ الحساس.

حاول غسان أن يخفف عليها فقال لها "تعال يا أم سعد اجلسي هنا أنت متعبة فقط، ربما كان شوقك لسعد وقلقك عليه هما اللذان يصدعان رأسك... أنت تشعرين بالتعاسة"²⁸.

"جاءت يومها مهمومة... بدت لي ضائعة... شيء ما يجثم بالهم على كتفي أم سعد... أنا الذي أعرف أن أم سعد صندوق مغلق على همه لا يبوح به لأحد إذا ما ضجت أصوات التعب والقلق والخوف من المجهول"²⁹، فصور الكاتب مشاعر أم سعد القلق والخوف والهم والضيق وربط هذه المشاعر بأسبابها (التعب والقلق والخوف من المجهول... حيث نجده يذكر أن معاناة أم سعد في مخيمات التمزق سنوات لا قبل لأحدٍ بحملها على كتفيه.

ومن مشاهد الحيرة والتعاسة قوله: "زمت شفتيها، وبدت محتارة وإلى حدّ غامض بائسة وتعسة وغير راغبة في الكلام..."³⁰ وتحيرت... كانت حين تسمع اسم عبد المولى الخائن وهو نائب في برلمان إسرائيلي "تتزعزع بدت كمن ركبت العفاريت"³¹ فهي تدين ذلك الخائن العميل "ومضت تهرز رأسها محتارة"³².

²⁵ الرواية ص 23

²⁶ الرواية ص 25.

²⁷ الرواية ص 30

²⁸ الرواية ص 30

²⁹ الرواية ص 47

³⁰ الرواية ص 48

ومن مشاعر الغضب يذكر الكاتب أنّ أم سعد كانت تشعر بالغضب من الاستغلال والانتهازية لصاحب العمارة ومن ناطور البناية الذي تصفه بالكاذب، فهو يريد إرجاعها للعمل في تنظيف السلام بحجة أن عملها جيد غير أنه يريد فقط توفير ليرتين، ولأنّها تتصف بالتضحية والإيثار لم ترد قطع رزق أحد... إنّها متعاطفة مع مثيلاتها من الطبقة الفقيرة فأحست بالذنب اتجاهها إنّها تننصر لفقيرة على حساب لقمة عيشها وهي في أمس الحاجة لها.

4.4. حقل عاطفة (السعادة والتفاؤل والفخر)

على الرغم من مسحة الحزن التي تكتنف أحداث الرواية إلا أنّه يتخللها مشاعر السعادة والتفاؤل والفخر، جسدها الكاتب بألفاظ كثيرة ووصفها وصفا دقيقا؛ حيث امتزجت مشاعر السعادة بالسخرية والتهكم حيناً والابتسامة والضحك حيناً آخر، وعنوان الرواية أم سعد يوحي بالسعادة والأمل، ومن مثل أسماء بعض الشخصيات (سعد، أم سعد، سعيد) وورد لفظ الابتسامة والضحك في مواضع عديدة في صفات الرواية؛ حيث يقول غسان: "وضعت صرّتها الفقيرة في الركن، وسحبت من فتحتها عرقا يابسا... سأزرعه لك على الباب وفي أعوام قليلة تأكل عنبا، ودوّرت العرق الذي بدا خشبة بنية داكنة لا تنفع شيئا..."³³ وهذا يدل على تفاؤل أم سعد وفي المقابل تشاؤم الكاتب المثقف فهو بدا له ذلك العرق بنيا يابسا لا أمل فيه في حين كانت هي واثقة تمام الثقة أنّ ذلك العرق سيورق من جديد ويثمر عنبا. وفعلا يتحقق هذا الأمل في آخر الرواية يقول غسان "وفاحت الغرفة برائحة الريف العريق... سمعت صوتها يعبر بين المصراعين المفتوحين على وسعهما: برعمت الدالية يا ابن العم!" فبينما كان يبدو أمرا مستحيلا في بادئ الأمر حيث يقول: "منذ زمن بدا لي تلك اللحظة سحيق البعد تلك العودة البنية اليابسة التي حملتها إليّ ذات صباح تنظر إلى رأس أخضر كان يشق التراب بعنفوان له صوت".

أم سعد شخصية متفائلة رغم ما تعانيه في حين كان الكاتب المثقف متشائما وهذا ما يفسّر الغضب الذي اجتاحتها في حوارها معه تقول له أم سعد: "أتحسب أننا لا نعيش في الحبس؟ ماذا نفعل نحن في المخيم غير التمشي داخل ذلك الحبس العجيب؟ الحبس أنواع يا ابن العم أنواع... المخيم حبس، وبيتك حبس، والجزيرة حبس، والراديو حبس، والباص حبس، والشارع وعيون الناس... أعمارنا حبس، والعشرون سنة الماضية حبس والمختار حبس... تكلم أنت عن الحبس؟ طول عمرك محبوس.. أنت تتوهم نفسك يا ابن العم بأن قضبان الحبس الذي تعيش فيه مزهريات؟ حبس، حبس، حبس أنت نفسك حبس... فلماذا تعتقدون أن سعد هو المحبوس؟ محبوس لأنه لم يوقع ورقة تقول إنه آدمي؟ من منكم آدمي؟ كلكم وقعتم هذه الأوراق بطريقة أو بأخرى ومع ذلك فأنتم محبوسون، رأيتموها محتاجة بمثل ذلك الغضب وقلت لها هدئي من أعصابك يا أم سعد أنا لم أقصد شيئا"³⁴ تصف أم سعد كلا من المخيم والاغتراب والمنفى بالسجن والخروج منه هو التمرد على خيمة الذل عن طريق الانتماء للثورة لقد كانت أم سعد مقتنعة أن ابنها سيخرج من الحبس، وانتقدت الكاتب المثقف انتقدت فيه شعور اليأس والحيرة فيما كانت هي مفعمة بالأمل والتفاؤل، بأن فلسطين ستحرر. وهذا ما يجعل القارئ يشعر بالفخر والاعتزاز.

³¹ الرواية ص50

³² الرواية ص54

³³ الرواية ص11

³⁴ الرواية ص18-19

ومن الألفاظ الدالة على الضحك والابتسامة ورد في قول أم سعد: "سعد ورفاقه قال لي المختار إنهم ضحكوا عليه، وإن سعدا سأله: شو يعني أوادم؟ قال المختار: إنهم كانوا محشورين في زنزانتهم وأخذوا يضحكون جميعا... وإن شخصا ما لا يعرفه كان بينهم قال له أوادم يعني قاعدين عاقلين؟ فقال رجل ثالث يعني ناكل كف ونقول شكرا؟ وإن سعدا قام وقال له: يا حبيبي أوادم يعني بنحارب هيك يعني هيك.. كانت تتوهج بسعادة غامضة.. وقالت يخزي العين عليهم! كان المختار يحكي لي القصة وكنت أضحك بعبي"³⁵ تنتقد أم سعد ذلك المختار الخائن وتدينه وتنتقد رضوخه واستسلامه وخيائته وتسخر منه في داخلها. فقول ابنها ورده عليه ورباطة جأشه، أثلج صدرها وغمرها سعادة وفرحا.

ويقول الكاتب في موضع آخر يصف سعادة أم سعد "نظرت إليّ واطعة تلك الابتسامة على ركن شفيتها"³⁶ "وهناك ضحكت... قلت للمرأة التي جلست بجاني في الباص أنّ ولدي أضحي مقاتلا (آنذاك بدى صوتها مختلفا).... قلت لها أنني أحبه وسأشتاق له..."³⁷ وهذا يعكس القدرة على التماسك والكفاح وتحمل الواقع والتفاؤل بالمستقبل، وتتجلى عاطفة التضحية والإيثار في صفحات الرواية فقد اهتم غسان كنفاني بالإحساس الذي تثيره الكلمات في القارئ، فقد كان يبحث عن الفردة في الشعور فأما سعد بين عاطفتي الحب والشوق (الأم لأبنائها) من جهة وبين الإيثار فرغم حبها لسعد إلا أنها لم تبخل به على القضية التي تؤمن بعدالتها فهي تجسد تضحية الإنسان بما يملك في سبيل ما يؤمن به. وتفتخر بعقد من المعدن يحمل رصاصة أهداها لها ابنها فهي رمز ثورتها. فهي تخرج بابنها فدائيا آملة أن تعود من خلاله إلى فلسطين، ليس هذا وحسب بل كانت أم سعد تتمنى أن تخرج مع الثوار لتخدمهم، كما لمسنا تحولات ثورية إيجابية تفتحها الرواية في حياة المخيم وأم سعد مثل: تغير شخصية أبي سعد، وكذلك حين تنقذ أم سعد ابنها ورفاقه خاصة حين تلم شطايا القنابل من شوارع المخيم.

يقول الكاتب: "ضحكنا كلنا... كان ثمة ارتداد لا يصدق تراجع طوفان الدموع الذي تسبح فيه وأشرقت كما يضيء الشيء من الداخل... قال لها صديق سعد "سعد يسلم عليك إنه بخير وسيهديك غدا سيارة..."³⁸ يعني أنه سينسف سيارة³⁸ فهذه مشاعر السعادة مرفقة بالافتخار والاعتزاز التي تطفئ لهيب الألم وفراغ القلب وتصدّعه.

وحين تحقّق وعد ابنها لها تزداد سعادة وابتهاجا: "لقد ابتسمت وبدأت قوية وشابة كما كانت تبدو دائما لقد انتظرت حتى المساء لأسمع سقوط سيارة إسرائيلية في كمين مقاتلين، وارتقبت بلهفة أن أسمع أن تلك التهمة الرائعة للخبر وعاد الفدائيون إلى قواعدهم سالمين".³⁹

فأم سعد تخاطب الكاتب بكل ثقة: "أرأيت؟ قلت لك: أن سعدا سيهدي أمه سيارة"⁴⁰ "كانت الضحكة تملأ وجهها كما لم نرها أبدا"⁴¹ جاء سعد... مجيء العيد⁴² وفي وصف مشاعر الفخر تصف أم سعد ابنها في ساحة التدرّب قائلة: "نزل سعد إلى

³⁵ الرواية ص 17³⁶ الرواية ص 18³⁷ الرواية ص 24³⁸ الرواية ص 30-31³⁹ الرواية ص 31⁴⁰ الرواية ص 32

حلقة العرض أخذ الناس يصفقون... وأطلقت زغرودة طويلة تجاوبت بزغاريد تبعث على طول المكان وعرضه...⁴³ "انطلقت أم سعد تزغرد مرة أخرى وكان التصفيق مازال يدوي"⁴⁴

تقول أم سعد: "سعد يقول أنه رأي هنا، وأنه لولا أي أطعمته لمات جوعاً ولولا أن دعوت له لقتلته الرصاصة التي شفت لحم ساعده..."⁴⁵ فالأم العجوز أنقذت سعداً ورفاقه من حصار دام ثلاثة أيام... وجعلت الرصاصة في عقد على صدرها فهي تفتخر بها لأنها رمز ثورتها.

تصف أم سعد للراوي كيف تصدّى ابنها أمام رصاص الاحتلال: "شمرت عن كفيها فأرتني كيف شقت الرصاصة لحم الساعد من الرسغ إلى الكوع... رأيت كيف يمكن للأمهات أن ينجبن المقاتلين"⁴⁶ وجاء على لسان زوجها أي سعد: "هذه المرأة تلد الأولاد فيصيروا فدائيين هي تخلف وفلسطين تأخذ"⁴⁷ وكانت أم سعد تضحك بافتخار، ومع شعور الحب والشوق لابنها تحس بالتفاؤل والأمل والثقة به فقد "أخذت تفكر بسعد... يرجها بمشاعر لا تستطيع أن تعرف طبيعتها يملؤها بنوع من الثقة ومن الأمل فيه"⁴⁸.

وفي وصف الكاتب لدموع أم سعد الصامدة الفريدة التي نفى أن تكون دموع الخيبة والحزن والمأساة، كما أنها ليست دموع الندم والتعب والاشتياق والجوع والحب، ومن غرابتها وفرادتها أنها دموع أخذت تشق طريقها إلى فوق... لقد جاءت مثلما تتفجر الأرض بالينبوع المنتظر منذ أول البدء، مثلما يُستلّ السيف من غمده الصامت ووقعت هناك على بعد لحظة واحدة من بريق العين الصامدة، عمري كله لم أر كيف يبكي الإنسان مثلما بكت أم سعد، تفجّر البكاء من مسام جلدتها كلها، أخذت كفها اليابستين تنشجان بصوت مسموع، كان شعرها يقطر دموعاً شفتها عنقها، مَرَّقْ ثوبها المنهك جبهتها العالية، وتلك الشامة المعلقة على ذقنها كالراية، ولكن ليس عيناها"⁴⁹. فرغم كل المعاناة والألم تشبثت أم سعد بالصمود والعزة والكبرياء، فقد شبه الكاتب دموع أم سعد بتفجر الينبوع المنتظر تارة، وبالسيف المستلّ من غمده تارة أخرى، ليستدل على صمود المقاومة.

جاء في الرواية "فجأة تغير كل شيء"⁵⁰ لتحيل على التغير الإيجابي في حياة أبي سعد فقد تغير من شخص غاضب هارب من المسؤولية متدمراً ساخطاً فظاً، كان شرساً يصرخ دائماً طبعه خشن ثم تبرر أم سعد أسباب طباعه الحادة فتقول: "الفقر يا ابن عمي

41 نفسه ص 33

42 نفسه ص 33

43 نفسه ص 70

44 نفسه ص 71

45 نفسه ص 40

46 نفسه ص 33-34

47 نفسه ص 73

48 نفسه ص 45

49 الرواية ص 27.

50 الرواية ص 69

الفقر... يجعل الملاك شيطانا ويجعل الشيطان ملاكا.. كان أبو سعد مدعوسا بالفقر ومدعوسا بالمقامرة ومدعوسا بكرت الإعاشة...⁵¹ ثم تستدرك أم سعد أن الصبر هو الذي غير طباعه وحوله رأسا على عقب.

5. خاتمة:

يسعى غسان كنفاني من خلال رواية أم سعد إلى تحريك عواطف الآخر وإقناعه بمشروعية القضية الفلسطينية، واستمالة العواطف للتأثير في الآخر (الرأي العام العالمي، منظمة الأمم المتحدة والإنسانية جمعاء...) وتحريك مشاعرهم من أجل تصنيف العدو في خانة الأشرار. وإقناعه بأحقية الشعب الفلسطيني، وجعل المتلقي على علم بمدى بشاعة العدو الإسرائيلي وعناء الفلسطينيين من عدوانهم وبالتالي حق تقرير المصير.

ثمّة أحداث تحرك شعور المتلقي وتجعله يشعر بالنقمة على الإسرائيليين؛ ذلك أنّ قتلهم يشكل دفاعا مشروعاً عن النفس، بل هو جهاد في سبيل الله.

كما خاطب الكاتب الفلسطينيين أنفسهم خاصة المثقفين منهم بضرورة الابتعاد عن اليأس خاصة بعد الهزيمة والتهجير، وأن السبيل الوحيد للانتصار هو الثورة والصمود.

6. قائمة المراجع:

- أرسطو: الخطابة (الترجمة العربية القديمة) تحقيق عبد الحمن بدوي، دار القلم بيروت 1979 .
- الحسن بواجلاين: نظام الحجاج بالعواطف في قصيدة البكاء للشاعر محمود درويش مجلة مقامات المجلد 4 ع2 (2020).
- حاتم عبيد: الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ج4 الحجاج والمراس، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1 2010، ص97.
- عبد الله صولة : في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات دار مسكيلاني ط1، 2011 .
- غسان كنفاني أم سعد منشورات غسان كنفاني الثقافية ط1 - 1969، ط2013 .
- محمد العمري: في بلاغة الخطاب الإقناعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية في القرن الأول نموذجاً إفريقيا الشرق، المغرب.
- محمد الولي : السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية الجزء 2 حافظ اسماعيلي علوي الحجاج مدارس وأعلام ، ج2 عالم الكتب الحديث إربد الأردن . 2020
- محمد طروس: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء ط1، 1426هـ 2005م .

⁵¹ الرواية ص74

Refernces

- Aristu: alkhatba (altarjamat alearabiat alqadimati) tahqiq eabd alhaman bidway, dar alqalam bayrut 1979 .
- Alhasan biwajilayin: nizam alhujaaj bialeawatif fi qasidat albuka' lilshaeir mahmud darwish majalat maqamat almujaalad 4 ea2(2020).
- Hatim eubayd: albatws min alkhatabat 'iilaa tahlil alkhatab min alaihtijaj bialeawatif 'iilaa alaihtijaj lileawatifi, dimn kitab alhujaj mafhumih wamajalatih dirasat nazariat watatbiqiat fi albalaghat aljadidat ja4 alhujaaj walmarasi, ealam alkutub alhadith, 'iirbid al'urdunn, ta1 2010, sa97.
- eabd allah sawlat : fi nazariat alhujaaj dirasat watatbiqat dar miskilyani ta1, 2011.
- Ghasaan kanfani 'umi saed manshurat ghasaan kanafani althaqafiat ta1 - 1969, ta2013.
- Muhamad aleamri: fi balaghat alkhatab al'iiqnaeii madkhal nazariun watatbiqiun lidirasat alkhatabat alearabiat fi alqarn al'awal namudhajan 'iifriqia alsharq , almaghrbi.
- Muhamad alwali : alsabil 'iilaa albalaghat albatusiya al'arstiat dimn kitab alhujaaj mafhumuh wamajalatuh dirasat nazariat watatbiqiat aljuz' 2 hafiz asmaeili ealawi alhajaaj madaris wa'aelam , ja2 ealam alkutub alhadith 'iirbid al'urduni .2020
- Muhamad turus: alnazariat alhujajiat min khilal aldirasat albalaghiat walmantiqiat wallisaniati, dar althaqafati, aldaar albayda' ta1, 1426h 2005m .